الفصل الثالث عشر

الخطأ التربوي في تنشئة «هابيل»

يمكن القول إِن التربية التي يتلقاها «هابيل» في المدرسة والبيت تعطيه صورة لا تُطابق العالم الحقيقي. وهذه الصورة هي صورة مثالية نوعاً ما ولا تعكس طبيعة العلاقات التي تسود المجتمع البشري.

فالأسرة والنظام التعليمي يؤكدان باستمرار أن الصدق في القول والعمل يقودان إلى النجاح.

والواقع هو أن هذه الرسالة لها ما يبررها من الوجهة الأخلاقية ولكنها تبقى ناقصة، حيث تحجب عن هابيل حقائق الواقع والحياة وطبائع البشر.

ولكن الرجل الراشد يتعلم من التجربة والممارسة أن الحق لا ينتصر دوماً على الباطل، على عكس الفكرة التي تشرّبها في طفولته والتي لا تُطابق الواقع وتدفعه لخوض معركة غير متكافئة مع قابيل.

ولكن، ما الذي، على وجه التحديد، يجعل المعركة غير متكافئة، أو بعبارة أخرى ما هي المعوقات التي يعاني منها هابيل؟

دور العائلة

من المعروف أن الوالدين في مجتمعنا الحديث يبديان في الكثير من

obeikandl.com

الأحيان قلقاً على الأبناء، ويسعيان إلى عزلهم قدر الإمكان عن الجوانب المظلمة للحياة.

والواقع أن الأهل في عصرنا الحاضر أصبحوا لا يعتمدون على أولادهم في الكثير من الأمور، بعكس ما كان عليه الحال منذ قرن، حين كان عدد المراهقين الذي أتموا دراستهم الثانوية ضئيلاً. لذلك كانوا ينخرطون في سوق العمل في سن مبكر لكسب رزقهم، بخلاف خريجي الجامعات في وقتنا الحاضر، الذين يدخلون معترك الحياة بعد تجاوزهم سن العشرين.

نموذج حي 28

في عام 1907 هاجر جون، الجد الأكبر لـ «نيكولاس» إلى أمريكا قادماً من أوروبا الوسطى. كان عمره آنذاك ثماني عشرة سنة، عمل بادئ الأمر في ميناء نيويورك ثم انتقل إلى شيكاغو حيث عمل في مسلخ.

وفي سنة 1917 عاد جون إلى أوروبا بصفة جندي في الجيش الأمريكي بعد نشوب الحرب العالمية الأولى. ثم عاد بعد انتهاء الحرب إلى أمريكا حيث تابع عمله في المسلخ. وأخيراً تزوج وانجب ثمانية أولاد، أحدهم مايكل، جد نيكولاس.

توفي جون سنة 1944 خلال فترة سادت فيها البطالة وعم الركود الاقتصادي، وخلال هذه الأوقات العصيبة اضطر مايكل للعيش مع أمه وأخوته في فقر مدقع.

كان مايكل في الخامسة عشرة من عمره عندما فقد والده، واضطر بعدها إلى ترك المدرسة للعمل كي يعيل أسرته حتى سنة 1941 حين جُند للقتال في الحرب العالمية الثانية.

وفي سنة 1942 ولد توماس الإبن الأول لِ «مايكل». انهى توماس دراسته الثانوية وانتسب إلى كلية الطب في الجامعة وتخرج منها طبيباً، والجدير بالذكر أن توماس كان يعمل خلال دراسته وخلال العطل الصيفية كي يستطيع تسديد ما يترتب عليه من نفقات الدراسة.

وفي سنة 1977 ولد نيكولاس الابنِ الأول لـ «توماس». ونيكولاس الآن في السنة الثانية في إحدى الجامعات الخاصة المتميزة، أضف إلى ذلك أنه كان يمتلك سيارة بعد بلوغه السنة السادسة عشرة. كما أنه يحتفظ بما يجنيه من الأجور التي يتقاضاها على الأعمال التي يزاولها من حين لآخر. ويتحمل الوالدان كافة نفقات دراسته الجامعية بالإضافة إلى نفقات أخرى معتبرين ذلك جزءاً من واجبهم تجاه ولدهم. وإذا رغب نيكولاس في متابعة دراسته بعد التخرج، فإنه يتوقع أن يقوم والداه بتغطية نفقات ذلك وهذا ما سيفعلانه على الأرجح.

هذه قصة واقعية ولكنها ليست فريدة، وتبين تطور العلاقة بين الأهل والأبناء على مدى الأجيال، فالأهل اليوم يميلون إلى عزل أبنائهم عن العالم الحقيقي بدل توعيتهم إلى أن الحياة العملية بعيدة عن المثالية. ومما يجعل المشكلة أكثر تعقيداً هو أن الأسر اليوم تنعم برفاه مادي أكثر من ذي قبل بالإضافة إلى كونها أصغر، وبالتالي أصبح الأبناء يحظون بعناية أكبر وهذا يؤدي إلى دخولهم معترك الحياة في مرحلة متأخرة قياساً بالأجيال السابقة.

صفوة القول هي إن هابيل وأمثاله يبدأون حياتهم العملية منطلقين من أن السلوك القويم والاجتهاد، وحدهما، كفيلان بتحقيق النجاح. لذلك يدخل الشاب معترك الحياة وهو غير مهيأ لتحمل قسوتها، والإحباطات التي لا مفر

منها. ولا شك أن المبالغة في توفير الدعم المادي والمعنوي من قبل الأبوين لا يسهم في إعداد الابن (هابيل) لخوض معترك الحياة وتحمل قسوتها خارج محيط الأسرة.

دورالتربية والتعليم

وعلى صعيد آخر يمكن القول بأن النظام التربوي يعزز ما يتعلمه هابيل من أبويه.

من المعروف أن المدرسة تقيّم الطلاب من خلال معايير موضوعية مبنية على امتحانات واختبارات، لذلك يفترض الطالب بأن الجد والاجتهاد يؤديان دوماً إلى النجاح، ولكن النجاح في المدرسة لا يعني بالضرورة النجاح في الحياة العملية حيث لا يوجد معايير أو امتحانات يكفي أن تجتازها بنجاح كي تتحق أهدافك.

ولكن ماذا عن الطلاب السيئين؟ قد يحتج البعض بأن المدرسة تعلم هؤلاء بأن الإهمال والتسيب يؤديان إلى نتائج وخيمة، ولكن المناخ التربوي هذه الأيام يهيب بالمعلمين تشجيع الطلاب على الاعتداد بأنفسهم دون تمييز بين الطالب المجد والطالب المقصّر.

والواقع أن بعض الناس صار ينظر إلى الدراسة وكأنها بديل عن الإنجاز، أي أن البعض يبقى في المدرسة أو الجامعة مدة أطول من المعتاد لأن ذلك يغذي الشعور لديهم بأنهم ينجزون شيئاً مطمئنين إلى أنهم في مأمن من الصراعات التي لا مفر منها في الحياة العملية.

إن المدارس، عموماً، لا تهيئ الطلاب لمواجهة الصراعات التي يواجهها المرء في الحياة العملية، لذلك يبقى هابيل غير مهيأ على الصعيدين العاطفي والفكري لمقارعة قابيل.

وحبذا لو أضافت المدارس مادة جديدة إلى مناهجها الدراسية تعنى

بتحضير الطالب، وإعداده لمواجهة العالم الخارجي، وتوعيته في مرحلة مبكرة إلى المتاعب التي قد يواجهها في الحياة العملية.

لا شك بأن المدارس تقوم بواجبها في تعليم المواد التقليدية ولكنها تهمل الجانب الإبداعي في التفكير، وتكاد لا تتطرق أبداً إلى الجانب الاقتصادي والسياسي للحياة الاجتماعية. إن المدرسة لا تؤهل الطالب لدخول معترك الحياة، وجل ما تفعله هو تحضير الطالب لاجتياز امتحانات معينة.

لذلك من المهم أن يتلقى الطالب في المدرسة دروساً تعينه على الصمود والمنافسة في ميدان العمل. ومن المفيد أن يتذكر هابيل قول مارك توين: «إني لا أدع ما تعلمته في المدرسة يؤثر على ما تعلمني إياه التجربة والممارسة».

دور الثقافة ووسائط الإعلام

أصبحت الثقافية الجماهيرية Mass Culture في عصرنا الحالي تعكس ما نراه ونسمعه يومياً من خلال وسائط الإعلام، والمقصود بعبارة «الثقافة الجماهيرية» أو ثقافة الجماهير: البرامج الترفيهية التي يعرضها التلفزيون، السينما والراديو، الصحافة المبتذلة وموسيقى «البوب». أما الصحف الجادة والبرامج العلمية والوثائقية، فأغلب العامة لا يكترث لها.

منذ عشرات السنين أخذت وسائط الإعلام تولي الجرائم والفضائح اهتماماً خاصاً، لا سيما تلك الجرائم المثيرة التي تلهب مشاعر الناس، ناهيك عن صناعة السينما التي وجدت في الإجرام والعنف مادة غزيرة للأفلام. ولكن ذلك لا يهيئ المشاهد (هابيل) لخوض الحياة العملية، وقابيل كما رأينا ليس ذلك المجرم العنيف، لذلك ليس لهذه الأفلام أية قيمة في توعية هابيل لما قد يواجهه من عثرات في الحياة العملية.

إن الأساليب التي يلجأ إليها قابيل تختلف عن تلك الأساليب العجيبة

التي يلجأ إليها الأشرار في بعض الأفلام السينمائية والتلفزيونية والحقيقة هي أن قابيل قادر على التلاعب بـ «هابيل»، لأن الأخير لم تهيئه أسرته، أو تربيته أو ثقافته، بما فيها الثقافة التي يتشربها من وسائل الإعلام، لمواجهة هذا العالم الذي شاع فيه الإثم.

بالإضافة إلى ما تقدم، فإن وسائل الإعلام الحديثة توحي لـ «هابيل» بأنه يمكن أن يلجأ دوماً إلى جهة يمكن أن تنصفه إذا تعرض لظلم أو كان ضحية دسيسة في المؤسسة التي يعمل فيها، لكن قابيل يعلم أن ذلك ليس سوى تصوراً مثالياً لما يحدث عادة.

وقد يحتج البعض بأن تركيز وسائل الإعلام على الأحداث السلبية من فضائح سياسية ومالية تجعل هابيل أكثر حذراً ووعياً لحقائق الحياة. فمثلاً أوردت بعض وسائط الإعلام تقارير ودراسات مفادها أن الأطفال في المستقبل سينعمون بمستوى معيشة أدنى من ذلك الذي يتمتع به ذووهم الآن. وثمة دراسات أخرى تقول بأن حيازة شهادة جامعية لم يعد يضمن الحصول على وظيفة لائقة.ولكن وسائط الإعلام نادراً ما تزود هابيل بالمعلومات التي تفيده في مواجهة هذا الوضع. أما قابيل، فلا يكترث لمثل هذه الاحتمالات، ويبقى متفائلاً ومعتداً بقدرته على الصيد في الماء العكر.

ينطلق قابيل من الفرضية بأن أفعاله فقط هي التي تقرر مستقبله. لذلك يسعى دوماً لاستغلال الوضع القائم لمصلحته، وغالباً ما ينجح في هذا المسعى.

أما هابيل، فقد يرى في المستقبل الذي تتنبأ به وسائل الإعلام ما يثبط عزيمته، وهذا يزيد من تشاؤمه، وبالتالي يؤثر سلباً على أدائه.